المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — ١٠ محرم سنة ١٣٦٩

آيات في خلقه

١ — للحياة سر كبير هو من آيات الخلق

في الأساطير القديمة التي تناقلها الأمم خلفاً عن سلف ، وفي قصص الميثولوجيا التي تتوارثها الأجيال ، حكايات عن أشخاص أو رواد أو أبطال وهبتهم الطبيعة قدرة خاصة على فهم منطق الحيوان ، الذي يظن الكثيرون أنه أبكم لا يقدر على شيء .

غير أنه من خطل القول ، ومن الاعتداء الصريح على القوة التي تدبر الأشياء ، أن يقال بأن الحيوانات التي تقع من نظام الطبقات الحيّة في مرتبة تعلو مرتبة الأسماك الطلامية ، عاجزة عن أن تتفاهم بالأصوات الشفوية التي تخرجها . على أن بعض الحيوانات العليا فيها من الذكاء والقدرة على الفهم ما حمل « ألفونس كار » على أن يقول مرة إن كلبه يستطيع أن يفعل كل شيء ما عدا الكلام . غير أنه حمد الله على أن كلبه عاجز عن ذلك ، وإلا لأزعجه بالثرثرة وكثرة الكلام وتكرار الشيء الواحد آلاف المرات .

وعلى الرغم من أننا لم نزوّد بكفاية القدرة على فهم منطق الحيوان ، ذلك المنطق الذي يتألف من أشاراته وأصواته الشفوية ، فإن البحوث الحديثة قد هيأت لنا فرصة الوقوف على حقيقة المخلوقات التي تعايشنا فوق هذه الأرض ، فرفعنا بعض الحجب التي لا يزال كثير

منها يغشي على مباحث التاريخ الطبيعي ، حتى بعد أن أفلح العلامة لينايوس ، بثاقب بصره وواسع علمه ، في أن يقفنا على العلاقات الأساسية التي تربط بين نواحي عالم الأحياء .

* * *

في سنة من أوائل سني القرن العشرين ، وجّه محرر إحدى الجرائد اليوميّة سؤالاً للسير «هربرت مكسويل» عضو المجمع الملكي البريطاني ليبيّن له اسم الكاتب الانجليزي الذي خلف أكبر الأثر في توجيه الفكر الإنساني في القرن التاسع عشر . ولم يكن هذا السؤال مما يجاب عليه عفو الخاطر ، ولكن سير مكسويل تناول القلم وكتب بغير تردد اسم : « تشارلس روبرت داروين » .

قد يتفق ان يوجد من يأنف أن يُضفَى هذا الشرف على عالم مواليدي (طبيعي) دون مجموعة اللاهوتيين والمؤرخين والفلاسفة والاخلاقيين والشعراء وكتّاب المقالة والقصصيين الذين أنجبهم القرن التاسع عشر برمته ، ومنهم من خلّف آثاراً دمغ بها الفكر بطابع ثابت في الناحية التي تمثت فيها مواهبه . غير أن الواقع أنه لم يتح لواحد من هؤلاء أن يستوي على ما استوى عليه « داروين » من روح العناد والمنافحة عما أتى به من حقائق العلم الطبيعي في أي فرع من فروع المعرفة، ولم ينتصر غيره في مجاله انتصاره في مجال ذلك العلم ، ولم يخلف غيره من بالغ الأثر ما خلّف من النتائج وأساليب البحث في ميادين النشاط العقلي .

ليس لنا أن نستطرد إلى الكلام في « داروين » وهل أمكنه أن يؤلف جميع حلقات التطور في عقد نظيم من الفكرات المسلسلة ، أو إنه عزى إلى نظرية الانتخاب الطبيعي من الأثر أكثر مما لها في حقيقة الأمر . فإن هذه الأشياء من شأنها أن تظل زمناً آخر مثاراً للمناقشة والخلاف . أما الذي أجمع عليه الناس فهو أن داروين إذ استجمع كل حقائق العلم والبحوث التي تقدمته واستوعبها وأنعم النظر فيها مؤيداً بعضها نابذاً البعض الآخر ، وإنه إذ أثبت صحة الكثير منها بملاحظات شخصية دقيقة ، وأضاف اليها نتائج القدرة البشرية في استيلاد الحيوانات الداجنة ، قد وفق الى رفع علم الأحياء في جملته وفي منحهه إلى ذلك المستوى الرفيع ، وأضفى على طلبه لوناً مثيراً للعجب ، باعثاً على الاجلال

والإكبار ، بل أنه ألّف بين ما كان متنافراً في العقل من صور الحياة وفي بث الحياة موكباً حافلاً ، هو الآية الكبرى من آيات الخلق .

* * *

ولكن ذلك الموكب الذي حشد فيه « داروين » كل صور الحياة ، لموكب دموي ، آيته الموت والقتل والفناء ، ليبقى في النهاية من الأحياء ما هو جدير بالحياة ، سنّة الانتخاب الطبيعي والتّشاحُر على الحياة وبقاء الأصلح . ولكن ذلك المجلى لم يرض قلوب الكثيرين ممن كانوا يرون أن الحياة روض ، والأمل زهرة ، والإنسان في الدنيا طير سبيل ، كما يقول « أولفر جولد سميث » ، وحزّ في نفوسهم أن يصبح ذلك الروض الذي تخيله الشعراء وذلك الأمل الذي تمناه الفلاسفة ، إنما هو ميدان معركة دائمة يفوز فيها الأقوى والأصلح والأصبر على مكاره الحياة ، لينقل إلى أخلافه الصفات التي جعلته يتفوّق في المعركة التي اجتازها عن جدارة واستحقاق .

والواقع أن هذه المعركة قائمة في جميع طبقات الأحياء من أدناها الى أرقاها ، بين الحيوان والنبات ، وبين النبات والحيوان ، وبين الحيوان والحيوان ، وبين النبات والنبات . ولكن ما هو السبب في ذلك ؟ سببه في الحقيقة أن المبدأ الذي تقوم عليه الحياة والذي هو الخلية الحية ، هو بعينه في الحيوان كما هو في النبات .

لا ينافع الحي عن حياته تلقاء أحياء أخرى ، أو يكافح عنها إزاء الطبيعة وأعاصيرها العاتية فحسب ، بل ينافع عنها إزاء الحر والبرد والرطوبة والجفاف وغير ذلك . فقد كان من حظ العلم أن يصل بأدواته وجهازاته المبكرة الى حقائق خفيت عن الناس القرون تلو القرون . فقد كشف الاحيائيون عن أحياء في أماكن وبقاع لم يحلم أحد بأن الحياة تستطيع البقاء فيها .

فقد صحب سير « أرنست شكلتون » في رحلته الى القطب الجنوبي عالم أحيائي هو مستر « جيمس موري » . فمر هذا العالم جرّة الى عمق خمسة عشر قدماً في بركة جمد ماؤها وأخرجها فاذا بها تمج بحيوانات تعرف باسم الحيوانات الدوارة ، وأخرى تعرف باسم دببة الماء أو المتريرط .

ظلت هذه البركة عامين في خلال وجود البعثة متجمدة الماء. وربما كانت قد ظلت كذلك سنين كثيرة قبل وفود البعثة الى تلك الاصقاع النائية، وربما كانت قد ظلت قروناً على تلك الحال، بقيت في خلالها هذه الحيوينات في حالة اندفان، وفي محيط نزلت درجة حرارته الى أربعين درجة فارنهيت تحت الصفر. لا يلوح في مثل هذه البيئة أي مظهر من مظاهر الحياة على هذه الكائنات. إن حياتها ترتد الى كمون.

ولكن لم يلبث العالم الاحيائي أن يضع هذه الحيوينات في محيط مائي ملائم الحرارة، ويعرضها للضوء، حتى أخذت هذه الدوارات وغيرها مما خرج في الجرة في الحركة والسعي وراء الرزق والعمل على إخلاف النسل، إما بإخراج البيض، وإما بالتوالد. على أنك لا تعجب بعد ذلك إذا علمت أن هذه الأحياء ليست سوى حيوينات مجهرية (مكروسكوبية) تكشفها لأبصارنا قوى المجاهر وحدها، وانها فوق ذلك من أوالي الركب في موكب الحياة.

ولعلنا فيما يلي نوفق الى الانتقال بك الى منظر آخر من مناظر ذلك الحفل العظيم.

* * *

٢ — اللصوصية في موكب الحياة

الجرذان لصوص مدربة

لا أريد أن أثقل على القارىء بذكر العلماء، وقد أسرفت بعض الشيء في ذكر «دارون» ومنزلته، فآثرت أن أجعل في هذه البحوث من المراوحة بين الطعوم، ما لا يشق على الذوق أن يألفه. على أني إذا كنت قد أسرفت بعض الشيء في الكلام عن «دارون ونظرياته»، فإنما كان ذلك عن حاجة لأظهر أن هذا العالم قد كشف عن أن للحياة موكباً يسير، وقافلة تضرب في سهول الحياة، وأن الحياة بما فيها من مختلف الصور هي عند الحقيقة وحدة لا تتجزأ، وأنها تبث في الأحياء من الصفات والطباع ما يشترك في غايته، وإن اختلف في أسلوبه ووسيلته.

* * *

لقد خص الفيلسوف بيدبا الجرذ بالكثير من عناية الذكر في كتابه «كليلة ودمنة»

فأبان عن ما فيه من صفات حميدة وما فيه من حرص ، وما اختص به من دهاء . ففي كثير من فصوله المتعة كان الجرذ صديقاً وفياً ، أو ناصحاً أميناً ، أو أريباً حذراً ، أو مفكراً منطيقاً. بل إنه في باب الجرذ والسنور جعله المكافح المنافح في الحياة ، العالم بطرق الجهاد والجلاد ، المحتال على العيش ، الساعي إلى الرزق ، العامل على المنافسة في دنيا الأحياء . ولكن هذا الفيلسوف على كثرة ما ذكر الجرذ فإنه لم يتخذ منه غير رمز يرمز به إلى حياة الإنسان ، ومثل يضرب حتى ما ينبغي للإنسان أن يتأدب عليه ، وما لا ينبغي له أن يسعى إليه من أحوال العيش . معنى هذا أنه لم يبحثه بحث العالم ، بل بحثه بحث الفيلسوف المتأمل . ولعلني لا أكون مخطئاً إذا قلت إن أول من بحث الجرذ بحثاً علمياً كان الطبيب العالم ابن بختيشوع في كتابه « منافع الحيوان » .

ولا أعرف على وجه التحقيق إن كان في المكتبة العربية نسخة من هذا الكتاب ، وإنما اطلاعي كان على مخطوط فارسي مصوَّر ، نقشت فيه رسوم منها رسم يبين كيف تنقل الجرذان بيض الطيور ، وكيف تفتن في نقله حتى يصل إلى جحورها سليماً . ولا شك في أن الرسم الذي يبين هذه الحقيقة في هذا الكتاب هو أقدم صورة عرفت في تاريخ علم الحيوان . جاء في ذلك الكتاب ما ترجمته :

« يستلقي أحد الجرذين على ظهره ممسكاً البيضة بين أطرافه الأربع (قدميه ورجليه) من فوق بطنه ، في حين يجره الجرذ الآخر من ذنبه ميماً نحو الجحر » .

ومن هذا الكتاب نسخة فارسية مصورة محفوظة في مكتبة « بير مونت مورجان » فيها أن الفراغ من كتابتها كان في سنة ٦٩٠ هجرية في مدينة فرغانة ، أي أنها كتبت في العصر المغولي .

* * *

ولقد حقق العلم الحديث تلك الرواية بعد أن ظلت معتبرة من الأساطير زماناً منذ أن نشر الكاتب الفرنسي المعروف لافونتين كتابه المشهور ، ولا سيما قصته المعروفة بعنوان : « الجرذان والثعلب والبيضة » .

Les Deux Rats, le Renard, et l'Oeuf. (No CLXXXIX Fables).

ولكن هذا لم يصبح الآن خرافة بل حقيقة أيدتها المشاهدات وعني بدرسها العلماء ،

ومن المؤلفات التي يعتمد عليها حتى الآن مؤلف العالم الانجليزي « جيمس رودويل » . « الجرذ : تاريخه وصفاته الهدمية » :

« The Rat : Its History and Destructive character by James Rodwell : 1858

ولقد عقب على هذا الكاتب غيره من الباحثين منهم العلامة المراليدي « توم سبيدي » الذي يروي القصة التالية :

دخلنا مسرعين إلى حظيرة اعتاد الدجاج أن تنقي بيضها فيها ؟ فرأينا في ناحية منها جرذاً كبيراً يحمل بيضة من المذود متجهاً بها إلى جحر في ناحية منه ، فكان يحتضنها بإحدى يديه دافعاً بأطرافه الثلاثة الأخرى بحرص وعناية حتى لا تتكسر . فلما شعر بنا ألقاها ولاذ بالفرار » .

ومما روي أيضاً أن جرذين قد يستطيعان نقل بيضة من فوق سلّم ذي درجات الى حيث يريدان . قال الأستاذ « رودويل » :

لاحظ صاحب معمل للحلوى أن البيض يسرق بطريقة لم يتبينها ، فأخذ يراقب الأمر حتى إذا كان ذات يوم بصر بجرذين ذكر كبير وأنثى أصغر منه حجماً على درجة من درجات السلم وبينهما بيضة ينقلانها بحرص وتؤدة ، فنزل الجرذ الكبير درجة من السلم ووقف على رجليه مادًّا يديه فوق الدرجة العليا ، وأخذ الجرذ الآخر يدحرج البيضة بهوادة حتى كانت عند يديه فأمسك بها محتضناً إيّاها بعناية ثم انحنى بها حتى وضعها على الدرجة ، وتريث حتى هبط إليه الجرذ الآخر وتسلمها منه ، ثم نزل الجرذ الأول درجة أخرى ، وتلقاها كما فعل أولاً ، وما زالا يهبطان حتى بلغا نهاية الدرج .

ألا نجد في هذا عذراً لأولئك الذين قالوا « إن الحيوان إن امتنع عليه الكلام ، فإن الطبيعة قد عوّضته عنه بقدر من العقل ، وقسط من الحيلة ، تسلّح بهما في معركة الحياة ؟ ألسنا نجد في هذا وأمثاله عذراً لأولئك الذين أنطقوا الطير وألهموا الحيوان في قصصهم الرائع وحكمهم الباقية .

اسماعيل مظهر